

العلوم التجريبية ايمان مطلق لاشعورى

جاسم محمد تقى

ماجستير علوم

اسلام آباد

استمعت بقراءة مقال الاستاذ الفاضل الاستاذ محمد عبدالستار نصار العلوم الكونية واثرها فى تدعيم الايمان « فى مجلة الدراسات الاسلامية المجلد الخامس عشر العدد الرابع والمجلد السادس عشر ، العدد الاول ديسمبر ١٩٨٠م و مارس ١٩٨١م وأحب ان أسجل بعض الملاحظات حول المقال . يقول الاستاذ نصار « . . . فالباحث المادى الذى لا يؤمن بشيء وراء العالم المحسوس يحاول ان يجذب نتائج بحوثه لتدعيم موقفه المنكر لوجود قوة غير منظورة تدبر أمر هذا الكون . . »

ولا بد من ادراك ان البحوث العلمية هى مادية كلها لان المادة قوامها وهذه حقيقة اولية لا يمكن انكارها فالبحث العلمى يبدأ بالمادة وينتهى بها ولا يسعه ان يسير بطريق غير هذا الطريق .

والعالم عندما يبدأ بحوثه يقيمها كلياً ويفسرها ويؤولها على أسس منطقية ثابتة دون أن يدخل فى متاهات العلوم الغيبية . فهو يسلم بالمنطق بدون اية براهين وهو يؤمن ان هذا المنطق هو سبيله الوحيد الى ايجاد تفسيرات مقبولة لسلوك المادة ، الظاهرى والباطنى .

فالعالم يعتبر ان الواحد اكبر من الصفر ويعتبر ذلك من البديهيات الاولية التى لاتقبل النقاش ولكنه يستنتج من ذلك ان ١ < ٢ و ٢ < ٥ وهكذا ولكنه فى هذه

الحالة قادر على أن يبرهن على ما يقول .

والعالم لا يعرف ما معنى الصفر أى العدم ولا يعرف معنى اللانهاية (oo) فهما من الامور التي لاتقع ضمن ادراكه أى ان العلم التجريبي يبدأ من مرحلة ما بعد العدم وينتهى الى مرحلة ما قبل اللانهاية وتلك حدود فرضها على نفسه واعتبرها من المسلمات الاولى .

والذى يدخل فى تعقيد الفلسفة يدرك تماما الأبعاد الفلسفية الخطيرة للتفكير العلمى النظرى والعملى ليثبت ان العلم التجريبي يؤمن شعوريا (وفى اغلب الاحيان لا شعوريا) بوجود قوة عظيمة فى هذا الكون لها قدرة تفوق أى تصور له وان ايمانه الراسخ بعقلانية ومنطقية هذه القوة ونظامها بالكون هو الذى جعله يمارس اعماله بصورة مستمرة ولديه فى كل مرحلة تجريبية وفى كل نظرية علمية امل فى أن يكتشف المزيد من النظام والقانون الذى يسير المادة ، تارة لكشف العديد من اسلوبها الغامض واخرى ليسخرها لخدمة الانسانية كلها .ولذلك فلانتفق مع الاستاذ نصار بأن الباحث المادى يخرج عن دائرة البحث الموضوعية الى دائرة الذاتية والتعصب .

ويقول الاستاذ نصار « وقد يخلع الباحث على النظرية العلمية شيئا من الأهمية اذا ما شعر بأثرها فى الواقع الحية حتى ولو لم تكن هى التفسير الصحيح أو القريب من الصحيح للظاهرة موضوع البحث ، وهنا يكون للمنفعة دورها المؤثر فى البحث العلمى ..ونرى ان هذا خطأ جسيم فى تصور البحث العلمى . لأن الباحث لايهمه كثيرا او قليلا تناقض ابحاثه مع النظريات القائمة بل يهيمه ايجاد تفسير منطقي ومقبول لسلوك المادة التى تشذ عن بعض القوانين المتوصل اليها من قبل . ومن الطبيعى ان يكون الامر نسبيا فى البداية ليترك المجال الى بحوث اكثر دقة لاكتشاف المزيد من الحقائق المتعلقة بسلوك المادة .

فقد كانت قوانين نيوتن ناجحة الى حد ما فى تفسير سلوك المادة ولكن

عندما توغل العلم فى عالم الصغائر أى الذرة والالكترون عجزت قوانين نيوتن عجزا تاما عن ايجاد أى تفسير لها الأمر الذى جعل العلماء يدركون بانها صورة تقريبية لقوانين اعم واشمل منها تنطبق على عالم الصغائر ايضا وجعل هذا الأمر اكتشاف نظرية الكم (Quantum Theory) بكل تعقيداتها .

وعندما اكتشفت التجارب ان الالكترون يسلك سلوك جزيئى (Particle) وسلوك موجى (Wave) ، لم يتورع العلماء عن نسف كل النظريات التى تفسر الالكترون على اساس انه جزيئة وله وزن معين ولا زالت العلوم التجريبية تبحث فى هذا الازدواج السلوكى للمادة .

كما لم يتردد العلماء بقبول فكرة خطأ نظرية حفظ المادة (of Matter Conservation) لاسيما بعد اكتشاف نظرية آينشتاين الشهيرة التى ربط فيها السلوك الجزيئى بالسلوك الموجى . فلو رمزنا للطاقة بالرمز «ق» والكتلة بالرمز «ك» وسرعة الضوء بالرمز «س» لكانت معادلة آينشتاين :

$$E = mc^2$$

أى ان الطاقة تساوى كتلة المادة مضروبة فى مربع سرعة الضوء، ومن ذلك نعرف ضخامة الطاقة التى يمكن ان يحصل عليها الانسان من وزن ضئيل جدا من المادة .

وبدأت نظرية الكم بفرضيات العالم (Bohr Postulates) التى وضعها بدون اية براهين او اية مبررات سوى انها تودى الى وضع صيغة رياضية تفسر سلوك الالكترونات فى الذرة ومداراتها الخارجية وقبل العلم بهذه النظرية حتى طورتها الابحاث التى كشفت انها هى الأخرى صورة تقريبية محدودة لنظرية اعم منها .

وإدى هذا الحرص العلمى الشديد على تفسير ظواهر وسلوك المادة الى عصر الذرة والطاقة الذرية التى لو استخدمت للاغراض السلمية لازدهر العالم

الانسانى وتقدم تقدما عظيما ولقضى على كل مظاهر التخلف والفوارق الاجتماعية والاقتصادية والعرقية التى لا زالت سائدة فى عالم اليوم . أى ان العلوم التجريبية كان يمكن أن تحقق ولا زالت لها القدرة الكامنة على تحقق غايات واهداف الاديان السماوية ولاسيما الاسلام الذى جاء لينقذ الانسانية من الظلمات الى النور ويحقق التكافل الاجتماعى والعدل والمساواة والرفاهية والخير للانسانية لها .

اذن فالعلماء هم المؤمنون الحقيقيون بالذات العارفة الله تعالى . وان اختلفت تسمياتهم لها لانهم كسروا طوق العزلة الكلامية والنقاش الغيبي بأعمال عملية حققت ولا زالت تحقق الاهداف التى من اجلها أوجد الانسان فى هذا الكون . ويمكننى القول ان العلماء هم فئة متميزة عن سائر الناس لانها المدركة الحقيقية والمستفيدة الكبرى من ثمار الايمان العظيم ، فالايان بأثار الله تعالى فى هذا الكون وبنظامه المذهل وسير كل ما فى هذا الكون وفق القوانين وصيغ دقيقة ثابتة ، هو الذى جعل العلماء يحققون هذه الرفاهية العظيمة للبشرية جمعاء وينقذونها من مظاهر التخلف ويسرون حياة الانسان الى اقصى حد ممكن ولا زالوا غير مقتنعين بذلك ، مصممين على الاستمرار فى ابحاثهم وتجاربهم . فأين هم اذا من التعصب لآرائهم وافكارهم ؟ ! ان المعنى الضمنى لعملهم هذا هو انهم لازالوا بعيدين بعدا شاسعا عن الكمال وان جل همهم الاقتراب قدر الامكان من نذر قليل من الصفات الكمالية .

وكان ينبغى على علماء الدين والمفكرين الاستفادة كل الاستفادة من هذا التطور الضخم والحضارة الرائعة التى انفجرت ^{فى} هذا الكوكب فانطلقت الى عصر الفضاء والكواكب الأخرى نحو اكتشاف المجهول . وكان من المفروض ان تكون جهود العلماء هذه وازعا قويا للتغيير فى افكار عامة الناس . فالله كتب فى سنته التغيير نحو الافضل ودعا الانسان الى الاستفادة من آثاره . اولم يخلق الله كل ما فى هذا الكون لخير الانسان ؟ ! اولم يكرم الله الانسان بنظامه الكونى العجيب ؟ !

ألم يهب الله تعالى الت فوق المطلق للانسان على مخلوقاته ليسخرها كلها الى خدمته ؟ ! اذا كان كل ذلك صحيحاً فلماذا يأبى الناس التغيير والتجدد والثورة على القديم بكل معانيه ؟ !! ونحن لا نريد بذلك خروج الانسان عن مفاهيم الدين لانها ليست موضع النقاش وانما فهم الانسان لهذه المفاهيم لازال سلفيا قديما لا يتماشى مع متطلبات العصر ولا بد من تغيير هذا الفهم وهذا لايعنى انه بذلك يتناقض مع الدين لاسيما الاسلام لأن روعة الاسلام هو صلاحيته لكل زمان ومكان وهذا يتطلب من الانسان المسلم بالضرورة ان يكون فى مقدمة كل عمل و فكر جديد يهدف الى تطور و رفاهية المجتمع الانسانى لأن رسالته هى رسالة شاملة وعظيمة للانسانية جمعاء ولا يجوز له ان يكون فى الخلف وغيره فى المقدمة دائما يهب ويعطى بينما يظل هو يعيش فى سبات القديم والامجاد الماضية والنقاش النظرى البحت الذى لايعنى ولا يضمن من جوع .

فالعلوم التجريبية نسبية لاتعرف الحقيقة المطلقة ولايمكن ان تتصور مجرد التفكير فى هذا الأمر ولذلك فهى تتحاشى التعرض للامور الغيبية وتقتصر على مجال اختصاصها . ان محدودية الانسان فى تفكيره وفى حياته ووجوده تقتضى قصوره الكلى فهو لايملك من أمره شيئاً فقد وجد رغما عن ارادته كما انه أعدم رغما عن ارادته وطالما ان فاقد الشيء لايعطيه ، يبقى سلوك الانسان وتفكيره أمرا نسبيا بحثا يعتمد بدرجة كبيرة عل ظروف الزمان والمكان المحيطة به . وانطلاقا من هذه الحقيقة قال الرسول القائد محمد ﷺ المجتهد ان اصاب فله اجران وان أخطأ فله اجر واحد ..

فهذا الحديث الشريف هو ادراك عميق بقصور التفكير الانسانى وان الانسان اذا اجتهد يمكن أن يصيب ويمكن ان يخطئ ولكنه يكافأ فى كلتا الحالتين باعتبار أن قصوره هو أمر خارج عن ارادته وان الامور بأسرها انما هى امور نسبية . فاذا كان فهمنا لامور معينة فى ظرف زمنى معين نسبية فكيف يمكن

اعتبار هذا الفهم مطلقا حتى بعد تلاحق أزمنة واجتهادات أخرى . ؟ ! بل كيف يرضى الانسان أن يعيش في عصر غير عصره وهو يرى ان عصره مليء بالتقدم في كافة المجالات دون أن تكون له ادنى مقدرة على الاستفادة منها وطبعاً ذلك يرجع الى توقف عملية التطور (Evolution) في كافة المجالات وهذا ينطبق على وضعنا الحالي .

وعندما جاء أينشتاين بالنظرية النسبية أحدث ثورة كبرى في العلوم النظرية العملية ولازالت آثارها تنكشف يوماً بعد آخر غير ان الاساس الفلسفى لهذه النظرية يبقى نفس منطق المحدودية والقصور الذى تحدثنا عنه والذى يعتبر الوازع الاول للتقدم البشرى في كافة المجالات تشبهاً ظلياً بنذر قليل من صفات الكمال !!
